

بحث النبض المعرفي للتدريسي في المؤسسة الجامعية

أ.د. سليم علي الوردي

رئيس قسم المحاسبة

1- إطار البحث :

من نافذة القول ان وظيفة التدريسي الجامعي ، لا تقف عند نقل وضخ المعارف الى الطلبة وحسب . فمثل هذه الوظيفة ينهض بها مدرسو مراحل الدراسة الإعدادية . وليس من باب الصدفة ان يطلق على المدرسين في الجامعات لقب التدريسيين . لان وظيفتهم : هي ان يتدارسوا مع طلبتهم المادة المعرفية . " والتدارس " هو غير التدريس ، وإن اشتقا من مصدر واحد .

تدارس (على وزن تفاعل) وهي من مزيدات الأفعال ، تفيد المشاركة في الفعل . أما " درّس " (على وزن فَعَلَ) فهي من مزيدات الأفعال التي تفيد التعدية ، ونسبة المفعول الى اصل الفعل . واذ نستأنس بالأصول الاشتقاقية للتدريس والتدارس ، فأتما نسعى الى إضاءة مدلولاتها الوظيفية . وبالمقابل فإن الطالب student هو غير التلميذ pupil . فبينما يتلقى التلميذ المعارف التي يضخها المدرس إليه ، يفترض بالطالب ان يتفاعل مع المادة المعرفية التي يلتمسها ، ولا ينتظر ان يتلقاها جاهزة ، من دون ان يتمثلها .

الغرض من الفذلكة أعلاه ، هو تسليط الضوء على واحدة من مهام التدريسي الجامعي ، والتي تتمثل في غرس حب المعرفة لدى الطالب ، عبر حثه على التفاعل مع المادة المعرفية التي يحصل عليها . ولكي يوفق التدريسي في اداء هذه المهمة ، يفترض به ان يتوفر على نبض معرفي ناشط . وهو ما يقودنا الى المشكلة التي نتناولها الورقة :

كيف يتأني للمؤسسة الجامعية حث النبض المعرفي لدى التدريسي من جانب آخر؟

اعتمدت في اعداد هذه الورقة على خبرتي التي تزوج فيها الراءدان : النظري والتطبيقي . فقد امضيت ما يربو على ربع قرن في قطاع التأمين العراقي . لم انقطع خلاله عن التدريس الجامعي بصفة محاضر . هذا الى جانب مشاركتي في لجان مناقشة اطاريح الماجستير والدكتوراه في قسم ادارة الاعمال في العديد من الجامعات العراقية ، وخاصة بغداد ، وفي المواضيع المتعلقة بالتأمين وادارة الخطر . هذا الى جانب تقييم عشرات الابحاث المعدة

مجلة كلية التراث الجامعة (٢) العدد الخامس
لاغراض الترقيات العلمية . ومن ثم انتقالي في اواسط تسعينات القرن الماضي الى
التدريس الجامعي على سبيل التفرغ .

وقد ترشحت لدي من هذه الخبرة جملة استنتاجات ، من المفيد طرحها ، ومناقشتها ،
واغنائها ، بما يساعد على تأشير السبل الجديرة بتفعيل الاداء المعرفي للتدريسي الجامعي ،
تلبية لاحتياجات الواقع العملي من جانب ، وتأصيل المعارف العلمية للتدريسي من جانب
آخر .

٢- أصناف المعرفة :

المعرفة : مفهوم واسع جدا ، تتباين التيارات الفلسفية والابستمولوجية في تعريفه . واذ لا
مجال للخوض فيها في هذه الورقة ، نكتفي بالإشارة الى المعايير المختلفة التي تعتمد في
تصنيفها . ويمكن اجمالها في الآتي :

أ. محل المعرفة : الطبيعة او المجتمع ، وبموجبه تقسم الى معارف طبيعية واجتماعية .

ب. سبل اكتساب المعرفة : بالبداهة ام التوسل بالطرق العلمية : تعدّ الاولى معرفة بديهية ،
والاخرى معرفة علمية .

ج. حسب مستوى التعميم : وتقسم الى معارف عامة ، ومعارف متخصصة .

د. حسب دلالاتها في المنظومة المعرفية : تقسم الى معرفة نظرية ومعرفة تطبيقية .

وبموجب نظرية " ادارة المعرفة " تقسم المعرفة الى :

أولا : معرفة بيّنة **Explicit Knowledge** . وتتمثل في خلاصة المتراكم المعرفي
للإنسانية في الحقول المختلفة . ويقصد بها تلك المعرفة المنظمة والموثقة ، ويمكن نقلها الى
الآخرين .

ثانياً : المعرفة الضمنية **Implicit or tacit Knowledge** . وتتمثل بذلك النوع من
المعرفة الى ملكات ومهارات فردية يصعب نقلها الى الآخرين على غرار المعرفة البيّنة .
والجدير بالذكر ان المعرفة البيّنة تستغرق الجزء الاعظم من النشاط الجامعي : فيما عدا
الكليات والمعاهد التطبيقية التي تركز جهداً اكبر لاكساب المهارات .

٣- المعارف الجامعية :

تمثل الجامعات المستودع الذي تأمنه الإنسانية على متراكم معارفها ، للحفاظ عليه ،
وتتميمته وضخه الى الدارسين . وعلى هذا النحو تعمل الجامعات على ديمومة وتطوير
المعارف من خلال اعادة انتاجها ، الى جانب تأصيل قواعدها العلمية في الفضاء المعرفي
للمجتمع . واذ ان مستلزمات تفعيل النشاط المعرفي في المؤسسة الجامعية كثيرة ومتنوعة ،
سنسلط الضوء في هذه الورقة على التدريسي بوصفه محور هذا النشاط .

١-٣ التدريسي الجامعي :

يعدّ التدريسي وليد المؤسسة الجامعية ، ويحمل في " جيناته " المعرفية مستوى كفاءتها وفعاليتها . وتستمد الجامعة فاعليتها من الوشائج التي تشدّها الى المجتمع بفعالياته المختلفة . وعلى اساس ذلك يعدّ التدريسي همزة وصل بين معطيات الواقع التطبيقي محل اختصاصه ، والمنظومة المعرفية الذي يعدّ هو اهم عناصرها . ومن خلال ذلك يتحقق التسخ المعرفي الصاعد والنازل بين الجامعة والمجتمع .

ثمة خاصية تميز التدريسي عن اقرانه خريجي الدراسات العليا الاخرين ، الذين ينصرفون بعد تخرجهم الى الحقول الميدانية لاختصاصاتهم . حيث يواصل التدريسي عمله داخل نفس المنظومة التي نشأ فيها ، ليعيد ضخ المعارف التي حصل عليها الى الطلبة . ولهذا نجد ان للدراسة العليا ، فاعليتها ومساراتها ، اثر كبير في المسيرة المعرفية للتدريسي .

تكونت لدي بعض الانطباعات من خلال تجربتي الاكاديمية وخبرتي الميدانية في قطاع التأمين - عن مخرجات الدراسات العليا في قسم ادارة الاعمال لعدد من كليات الادارة والاقتصاد في العراق .

أ - تتعلق الملاحظة الاولى في اختيار مشكلة البحث ، فيسبب بعد الدارسين عن ميادين التطبيق ، يلجأون في الغالب الى مشاكل مفترضة ، مستوحاة من دراستهم النظرية .

ب - تمثل الاطروحة لمعظم الدارسين ، تلبية لاهم متطلبات الحصول على الشهادة العليا . لهذا نجدهم يتحرون عن الخيارات المؤاتية التي تقبض لهم تلبية هذا المتطلب ، من دون ملاحظة جدوى البحث بقدر تعلق الامر بالجهة الميدانية المستفيدة .

ج - يترتب على ذلك قلة اكتراث الجهات المستفيدة بمخرجات الدراسات العليا (الفروع الانسانية غالبا) . ويندر ان يكون لتوصياتها اثرا ملموسا في رفع فاعلية اداء الجهات المستفيدة .

٢-٣ الغربية بين الجامعة والجهات المستفيدة :

على الرغم من الدعوات لمد الجسور بين الجامعة والجهات الميدانية المستفيدة ، يسترعي الانتباه ان عددا ليس بالقليل من تدريسيينا الشبان يعانون الغربية عن المؤسسات الميدانية محل اختصاصهم . وقد تكون لدي هذا الانطباع من خلال تقييمي لعشرات الابحاث التي يتقدم بها التدريسيون لاغراض الترقية العلمية .

يواجه الكثير من التدريسيين عنقا ومشقة في اختيار مواضيع البحث وتحديد مشكلاته . ويؤشر ذلك ابتعادهم عن ميادين العمل محل اختصاصهم . ان من يعيش مفردات

اختصاصه على ارض الواقع ، لا يتعذر عليه التقاط مشكلاته . اما اولئك الذين تستغرقهم المخططات والمقولات النظرية الصرف ، بمعزل عن امتداداتها وتجلياتها في الحياة ، فيفقدون النبض المعرفي شيئاً فشيئاً . ويحضرني بهذا الصدد قول الشاعر الالمانى الكبير جوهان غوته :

جافة يا صاحبي شجرة المعرفة

اما شجرة الحياة فخضراء وارفة

وبسبب بعد التدريسي عن ميدان التطبيق محل اختصاصه تتخذ ابحاثه منحى نظري صرف . ويحسن بالتدريسيين ان يدركوا ان البحث النظري يتطلب عمقاً معرفياً متقدماً لا يتحلى به سوى العلماء . وخلافه يأتي ما يسمى بالبحث ملفقاً ومصطنعاً (Fabricated) يفترق الى الاصلالة والاضافة المعرفية . ولا يرقى البحث الى مصاف الاصلالة ما لم يرتكز الى تجربة عملية ثرة .

ان معايشة الحثيات العملية للمشكلة ، تضيئ للباحث اساليب وادوات البحث التي تيسر له التوصل الى اسباب المشكلة وتفتح امامه آفاق معالجتها . ان ضعف البعد التطبيقي لدى التدريسي يمثل ثغرة خطيرة في نسيجه المعرفي ، وتجعله يألف نمط المعرفة البيئية Knowledge Explicit ، وينحو الى اعادة انتاجها الى الطلبة بأسلوب جاف ، ما يجعل الطلبة المتلقين يضيقون ذراعاً بها .

وحصيلة هذه الغربة بين التدريسي والواقع الميداني ، نجد البحث لا يشغل سوى حيزاً هامشياً في نشاطه المعرفي . ولا يقدم اغلب التدريسيين على الانخراط في الابحاث ، الا بوصفها تلبية لمستلزمات الترقية العلمية . ولعلنا لا نغالي اذا قلنا ، بانه لولا هذا الباحث لأنحسر النشاط البحثي للتدريسيين الى مستويات دنيا .

٤ - تفعيل الدور المعرفي للتدريسي :

لا يحسن بنا طرح مواطن الضعف في الاداء المعرفي للتدريسي بمعزل عن فعالية المنظومة المعرفية للمؤسسة الجامعية ، والتي هي بدورها جزء لا يتجزأ من منظومة حياة المجتمع ، ودرجة فاعليتها في استثمار الموارد المتاحة لها ، وفي المقدمة منها المورد المعرفي . ومن نافلة القول ان اول ما يشف عن ركود المجتمع ، هو ركود منظومته المعرفية ، وفي مقدمتها الجامعات . ويتجلى ذلك في ضعف الوشائج بين الجامعة والمجتمع .

وعلى العكس من ذلك فإن زيادة فاعلية المنظومة الاجتماعية من شأنه ان يبرز مشكلاتها الفعلية ، ويلقي الضوء على اسبقيات معالجتها . ويجعل خارطة احتياجات المجتمع اكثر وضوحاً امام الباحثين ، ما يؤولهم للتصدي لها ، واختيار الطرق والمناهج العلمية المؤاتية

مجلة كلية التراث الجامعة (٥) العدد الخامس
للبحث فيها . وحين ينخرط الباحث بدراسة الاحتياجات الفعلية التي يفرزها الواقع ، يتوقف تلقائياً عن تناول مشكلات مفترضة او ملفقة .

ان استشراف التطورات في منظومة حياتنا : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، يفترض ان يقترن برؤية واضحة لسبل وآليات تفعيل دور المعرفة العلمية ، ومواكبة الجامعات لمستلزمات هذه التطورات. ويفترض بالتدريسي ان يتبوأ موقفاً طليعياً في سياقات هذه العملية . ومن المجدي في هذا الصدد مناقشة مستلزمات تفعيل الموارد المعرفية التي يتوفر عليها التدريسي ، باتجاه تعميق البعد التطبيقي في نسيجه المعرفي ، خلال جميع اطوار الدورة المعرفية التي يمر بها التدريسي ، ابتداءً من الدراسة الاولية في الجامعة ، مروراً بدراسته العليا ، وصولاً الى تأدية وظيفته التدريسية .

٤ - ١ الدراسة الجامعية

يفترض بالدراسة الجامعية ان تغرس لدى الطلبة غائية المعرفة . بمعنى ان المعارف التي يكتسبونها ، لم تعد كتلك التي الفوا تلقيها في دراستهم الاعدادية - أي مجرد ادوات لتوسيع مداركهم - بل تتوخى اعدادهم للتصدي مستقبلاً لمتطلبات نشاطهم العملي الذي يقع ضمن اختصاصهم وفي هذا المجال يمكن تأشير اساليب عدة .

أ - تكليف الطلبة ومنذ المرحلة الاولى باعداد التقارير . ولا ضير ان يتخذ ذلك في البداية طابعاً تجميعياً بصيغة خلاصات . فسيبين ذلك للطلاب ان اعداده الاكاديمي يستلزم خروجه عن حدود الكتب المنهجية والملازم . وسيكسبه ذلك المهارات المطلوبة لاستخدام المكتبة والتقصي عن المصادر التي تعينه على اعداد التقرير .

ب - زج الطلبة واعتباراً من المرحلة الثالثة في حلقات دراسية ، حيث يوزع الطلبة الى عدة مجاميع ، يقود كل مجموعة تدريسي ، وتهتم كل مجموعة باحد مواضيع الاختصاص . ويتمخض عن ذلك توسع معارف المجموعة في مواضيع معينة . ويمكن تطوير عمل هذه الحلقات الى اصدار نشرة لكل قسم يشارك الطلبة في تحريرها بتوجيه واشراف التدريسيين .

ج - تؤسس هذه الحلقات الدراسية لدى الطلبة مقتربات معرفية نحو المشكلات التي ستكون محل مشاريع ابحاثهم في المرحلة المنتهية . كما ويستحسن ان يكون للتدريب العملي علاقة بمجالات اهتمام الطلبة انفة الذكر .

د - ستفرز الفعاليات اعلاه عدداً من الطلبة مؤهلين للدراسات العليا ، خاصة حين تناقش بحوثهم في المؤتمر العلمي السنوي لطلبة القسم .

٤ - ٢ الدراسة العليا :

تمثل الدراسة العليا محطة مهمة للدارسين تتأسس خلالها العتلات اللازمة للتفاعل بين سدى المعرفة ولحمتها : النظرية والتطبيق ، بحكم كونها مرحلة اعلى في التخصص . ويتجلى التخصص في دنو الدارس اكثر فأكثر من معطيات المشكلات الحثية للواقع . ويمثل ذلك من حيث الحصيلة دروج الدارس الى مرحلة اعلى في مسيرته المعرفية . ولهذا تلعب فاعلية منظومة الدراسات العليا دوراً خطيراً في تصميم المواصفات والمسارات اللاحقة لمخرجات هذه المنظومة .

ليس من اليسير اخضاع جدارة الدراسات العليا للقياس . ولكن يمكن الوقوف ، على اثار توصيات الاطاريح في تطور فاعلية اداء الجهة المستفيدة . ولم اسمع او اقرأ للآن عن مسح قام به قسم علمي للتقصي عن نتائج توظيف توصيات الاطاريح في عمل الجهات المستفيدة ، وما اذا كانت قد اعتمدها او لا ، ولماذا ؟

وبتقدير ان مثل هذه المسوحات ستعمل على ترشيد منظومة الدراسات العليا . وتوفر الجهود على دراسة مشكلات مفترضة او هامشية بقدر تعلق الامر بالجهات المستفيدة .

ثمة غربة بين منظومة الدراسات العليا والجهات المستفيدة ، تتمثل في غياب مشاركة الاخيرة في طرح مشاكلها ، لتكون محلاً لاطاريح الدراسات العليا . وهو ما يقف وراء قلة اندفاع الجهات المستفيدة في دعم الباحثين في مرحلة اعداد اطاريحهم .

في مقالة للزميل أ.د. مجيد الماشطة تحمل عنوان " معضلة اختيار عنوان الاطروحة " (١) . يصف الكاتب الحيرة التي تلف الدارسين في اختيار مواضيع اطاريحهم . ويتقديرونا ان ما يسميها بالمعضلة هي تجلياً لمعضلات بنوية تعانيها الدراسات العليا ، بسبب ضعف وشائجها مع الجهات المستفيدة .

٤ - ٣ تداعيات المشكلة لدى التدريسي :

يظل خريج الدراسات العليا الذي يلتحق بالتدريس الجامعي يختزن في نسجه المعرفي الاشكالية اعلاه ، بينما لا يعانيتها اترابه ممن ينخرطون في العمل في المنظمات ذات العلاقة باختصاصهم ، حيث تملي عليهم معطيات ومتطلبات الممارسة مسارات توجهاتهم المعرفية اللاحقة ، التي تنتشق معطيات وحيثيات نشاطهم التطبيقي .

اما في التدريس الجامعي ، فغالباً ما يزج الخريج الشاب في القاء المحاضرات ، ليعيد انتاج المعارف التي حصل عليها في دراسته العليا ، وفي حدود استيعابه وتمثله لها . من دون ان

^١ جريدة النهضة ، بغداد ، العدد ٥٠ في ٢٠٠٣/١١/١ .

وعقبنا على المقالة ، بمقالة مقابلة تحت عنوان : " اختيار عنوان الاطروحة ، هو المعضلة ؟ " جريدة النهضة ، العدد ٦٣ في ٢٠٠٣/١٢/٦ .

تكون له ممارسة في التدريس . بينما نجد المؤسسات الجامعية الرصينة تثريث في زج التدريسي المستجد في العملية التدريسية مباشرة ، وتضعه تحت التجربة تحت اشراف وتوجيه تدريسي اقدم لحين ترسخ قدراته المعرفية الغضة . وقد يمضي عليه عدد من السنوات لحين تكليفه بالتدريس .

ومن جانب آخر يتطلب تفعيل معارف التدريسي وتأصيلها ، تصديه للمشكلات التي يطرحها الواقع في حقل اختصاصه وذلك من خلال ادامة العلاقة بين التدريسي والجهات المستفيدة من اطروحتة . وبصرف النظر عن درجة اندفاع تلك الجهات للافادة من خبراته . وقد سبقت الاشارة الى تغلب عدم اكتراث الجهات المستفيدة بمعظم مخرجات الدراسات العليا . بيد ان ذلك ينبغي ان لا يبعث على اليأس لدى التدريسي .

ويترتب على وزارة التعليم العالي والبحث العلمي التنسيق مع الوزارات والاتحادات المهنية ذات العلاقة بالجهات المستفيدة ، وضع قواعد وسياقات لادامة العلاقة بين التدريسيين والجهات المستفيدة من اختصاصاتهم . وتوفر هذه العلاقة للتدريسي خيارات واسعة من المواضيع الحيوية التي تصلح ان تكون مادة لباحثه ، بدلاً عن المشكلات المفترضة (الى حد التفريق احياناً) التي تستغرق بعضاً من تلك الابحاث . وبدلاً من ان يكون البحث نشاطاً موسمياً يقوم به التدريسي تلبية لمتطلبات الترقية العلمية ، يتحول الى ركن اساس في نشاطه المعرفي . وغني عن البيان ما يتركه ذلك من بصمات ايجابية على تدريسه . فحين تزخر محاضراته بالخبرات والمشكلات الراهنة يصبح الطلبة اكثر انشاداً وتفاعلاً مع المحاضرات التي يلقيها التدريسي ، كما يتيح ذلك اثرة اهتمام الطلبة ببعض المشكلات العملية التي يمكن ان تصبح مواضيع لمشروعات البحث في السنة المنتهية .

ان توجه ابحاث التدريسي في ميدان معين ، يدفع به الى المزيد من التخصص . لان التطور العلمي في عالمنا المعاصر لم يعد يتسع للاختصاصات العريضة . فالاختصاص المعرفي الضيق قد اصبح رديف تعمق التخصص على مستوى تطور القوى المنتجة ، بهدف تعظيم انتاجية المنظمات . وكذا الامر مع الباحث العلمي ، فإن زيادة انتاجية عطائه المعرفي بات يستلزم تركيز اهتمامه في جوانب محددة من اختصاصه الواسع ، وبما يؤهله لاداء دور استشاري فاعل في احد مفاصله . بيد ان هذا ينبغي ان لا ينتزع التدريسي من اختصاصه الواسع ، لان ذلك يتقاطع مع اهم مقومات المعرفة المتمثل في التكامل بين عناصرها . ويملي ذلك على التدريسي ادامة اهتمامه باساسيات اختصاصه الواسع ، واثرائها بمعطيات اختصاصه الضيق .

٥ - إشاعة المعرفة :

لا تقتصر وظيفة المعرفة على اكتشاف الحقائق ، او الاقتراب منها وحسب ، بل واشاعتها بين شرائح المجتمع المعنية بها . ومن نافلة القول ان الحقيقة تكتسب فاعليتها ، بقدر توسع قاعدتها المجتمعية . والتدريسي الجامعي بوصفه المؤتمن على المعرفة المنضبطة ، مدعو ليس فقط لنقلها الى طلبته اصحاب الاختصاص ، بل واشاعتها بين الشرائح المجتمعية المعنية بها والمستفيدة منها .

الى جانب الدوريات والكتب الاكاديمية المتخصصة ، تنشط في البلدان المتقدمة ما يسمى بوسائل النشر الجماهيري (Media Scientific Publication) . وهدفها ايصال الحقائق العلمية لغير اصحاب الاختصاص ، ما ييسر الثقافة العلمية المنضبطة لشرائح واسعة من المجتمع .

اشعر وانا اقرأ في صحفنا ومجلاتنا الشائعة في حقول المعرفة المختلفة ، ان معديها لا يرتكزون الى قاعدة معرفية رصينة في الاختصاص المعني . وبالمقابل نلاحظ شحة في مواد باقلام اساتذة جامعيين . لا اعرف على وجه الدقة عدد التدريسيين الذين يحملون لقب استاذ واستاذ مساعد في العراق الان ، ولكن يرجح عندي ان عددهم يتجاوز الست الاف تدريسي . ولو رقد كل واحد منهم وسائل النشر الجماهيري بمادة واحدة في السنة في مجال اختصاصه ، لتجاوز عددها ست آلاف مادة . ويمكن لنا ان نقدر اثر ذلك في الثقافة المنضبطة للمجتمع .

في احاديث متفرقة بهذا الشأن اعرب معظم التدريسيين عن عزوفهم عن قناة النشر الجماهيري ، بل وعدّها بعضهم جهداً ضائعاً ، اذ لا يعدّ بتلك المقالات في الترقّيات العلمية . ومع انني لا اروج الى عدّ هذه المقالات بمصاف البحث العلمي المحكم . بيد اني اقترح ان تعطى تلك المقالات وزناً ترجيحياً في الترقّيات العلمية .

نشرت خلال السنوات الاخيرة عشرات المقالات في الصحف والمجلات . وقد اضاءت لي هذه التجربة بعداً معرفياً جديداً ، يتعلّق بتكامل الاختصاصات المعرفية . خاصة حين توظف الحقيقة او المعلومات خارج حيز اختصاصها ، فعندها تثري وتثري ، وتنتشل رجل الاختصاص من قوقعة اختصاصه الى الفضاء المعرفي الرحب .

تعبّر الورقة عن رؤية الى الدور المعرفي الذي يحسن بالتدريسي الجامعي ان ينهض به داخل المؤسسة الجامعية وخارجها ، ولم اتعجل الخروج بتوصيات محددة ، لانها بتقديري لا تزال بحاجة الى المزيد من التعمق والمناقشة ، تصب في رسم استراتيجيات التعليم العالي والبحث العلمي في العراق .